السنة : ثالثة ليسانس، تخصص: أدب عربي الأستاذة: نور الهدى غرابة

الفوج: الثاني.

الدرس 14: الاستشراق كرؤيا؛"إدوارد سعيد" الخلفيات الفكريّة لخطاب الاستشراق

1/ نبذة عن المفكر والناقد الفلسطيني " إدوارد سعيد"

مفكر وناقد أمريكي من أصل فلسطيني؛ تخصص في الأدب الإنجليزي في جامعة princeton الأمريكيّة، وحصل على الدكتوراه من جامعة هارفارد، وعمل أستاذا للغة الإنجليزية وآدابها في عدد من الجامعات الأمريكية.

الدراسة والتكوين

نال درجة البكالوريوس من جامعة برنستون في الولايات المتحدة عام 1957 ثم حصل على الماجستير عام 1960 وعلى الدكتوراه من جامعة هارفارد عام 1964. كان يتقن العربية والإنجليزية والفرنسية، وملما بالإسبانية والألمانية والإيطالية.

الوظائف والمسؤوليات

عمل إدوارد سعيد أستاذا للأدب المقارن بجامعة كولومبيا في نيويورك، إضافة إلى محاضراته في أكثر من مئة جامعة وعمله أستاذا زائرا في عدد من كبريات المؤسسات الأكاديمية في الولايات المتحدة، ومنها جامعة هارفرد عام 1974، وجامعة جونز هوبكينز عام 1979.

وفي جامعة ييل في الفترة بين 1975–1976 أصبح زميلا لمركز الدراسات المتقدم للعلوم السلوكية التابع لجامعة ستانفورد، وحصل عام 1992 على منصب أستاذ جامعي، وهي أعلى درجة علمية أكاديمية في جامعة كولومبيا.

نال عضوية في الأكاديمية الأميركية للفنون والعلوم ونادي القلم الدولي والجمعية الملكية للأدب والجمعية الأميركية للفلسفة، بالإضافة إلى عمله رئيسا لجمعية اللغة الحديثة، ومحررا في فصلية الدراسات العربية.

ساهم إدوارد سعيد بشكل كبير في إثراء الساحة الفكرية على الصعيدين العربي والعالمي، ويُعتبر كتابه "الاستشراق"، الذي نُشر عام 1978، أحد أبرز الأعمال التي منحته شهرة عالمية .فقد أثار الكتاب نقاشات معمقة وضجة واسعة في العديد من الأوساط الأكاديمية والعلمية الدولية .في هذا الكتاب، تناول سعيد بنظرة نقدية النظرة الغربية إلى الشرق، حيث قام بتفكيك الصور النمطية التي اعتمد عليها المستشرقون، مشيرًا إلى أنها استندت إلى أسس غير علمية في العديد من جوانبها .كما سلط الضوء على الارتباط الوثيق بين الدراسات الغربية حول الشرق وبين السلطة والسياسات، موضحًا حجم الاستثمارات الضخمة التي وُجهت لخدمة هذه الدراسات .وشرح كيف تحوّل الاستشراق إلى تيار فكري له طابع سياسي واضح، يصور الشرق بطريقة تهدف إلى فرض الهيمنة والسيطرة الاستعمارية عليه.تناول المذهب المذكور التأثير العميق الذي تركه على تشكيل الوعي الغربي، حيث ساهم في تعزيز صورة سلبية عن الشرق، مما نتج عنه انطباع مليء بالتعصب تجاه العرب والإسلام لدى المتلقي الغربي .وعلى عكس ما يتوقعه البعض، لم يسعَ إدوارد سعيد في كتابه إلى اتخاذ موقف دفاعي، بل تبنى دور الناقد الذي يكشف عن أخطاء الغرب في طريقة فهمه للشرق وتعامله معه .كما دعا إلى إعادة صياغة هذه النظرة من خلال تقديم مقاربة جديدة تسعى لتقريب الفجوة بين الشرق والغرب، تقوم على احترام التعددية الثقافية وربط المعرفة بالمبادئ الإنسانية بدلاً من النهج الإيديولوجي القائم على السيطرة .لتحقيق هذا الهدف، كان يشجع الطلبة العرب على دراسة تاريخ الشعوب والحضارات الأخرى، مؤكداً على أهمية تجاوز الاكتفاء بمعرفة تاريخهم الخاص فقط.

لقد كان لهذا المذهب تأثير عميق وواضح في تشكيل الوعي الغربي تجاه الشرق، حيث ساهم في ترسيخ صور نمطية سلبية وتصوير مشوه للعرب والإسلام في العديد من الدوائر الثقافية والفكرية الغربية .هذه الصور المغلوطة ولّدت لدى المتلقي الغربي انطباعاً يفتقر إلى الموضوعية، وتأثرت رؤيته بشحنة من التعصب والأفكار المسبقة تجاه الشرق، ما أسهم في تعميق الفجوة بين الثقافتين .وعلى خلاف بعض التصورات التي ارتبطت به، لم يتخذ إدوارد سعيد موقف المدافع التقليدي في كتابه الشهير، بل أقدم على تقديم طرح ناقد يعري عيوب النهج الغربي وأساليبه في فهم وتفسير الشرق. بدلاً من ذلك، دعا إلى منهجية أكثر عدلاً وإنسانية تقوم على تعزيز الفهم المتبادل بين الحضارات والثقافات المختلفة. وقد أراد من خلال ذلك التقليل من حدة الانقسام وسوء الفهم بين الشرق والغرب، عبر دعوة صريحة لاحترام التعددية الثقافية ونقل المعرفة بما يرتكز على أسس إنسانية رحبة، بدلاً من الانصياع لمقاربات أيديولوجية تهيمن عليها نزعات التسلط والتفوق .وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، كان إدوارد سعيد يوجّه أنظار الطلبة العرب إلى أهمية دراسة تاريخ الأمم والحضارات الأخرى برؤية منفتحة وشاملة. وكان يشدد على مغبة الاستغراق في دراسة تاريخهم فقط، مشجعاً إياهم على الانفتاح على تجارب الشعوب الأخرى لاكتساب فهم أعمق للتاريخ المشترك والمصالح المتبادلة التي تربط مختلف الشعوب والثقافات.

2/ قراءة في كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد خطاب الاستشراق وجدلية العلاقة بين الشرق والغرب

يعَدُّ كتاب الاستشراق حدثًا محوريًا أحدث نقلة نوعية في مجال الدراسات الإنسانية، ولم تقتصر تأثيراته البارزة على العالم الغربي الذي شهد ولادته فحسب، بل امتدت لتشمل العالم بأسره. فقد نجح هذا الكتاب في تسليط الضوء بشكل جريء وكاشف على طبيعة العمليات الثقافية التي اتصف بها الاستعلاء الفكري للمفكرين والمثقفين الغربيين تجاه عالم الشرق وثقافاته الغنية والمتنوعة. وعلى مدار قرون عديدة، استمر هذا النهج الاستشراقي في ترسيخ

صورة مشوهة ومتحيزة تجاه حضارات الشرق، ففتح الكتاب أعين القراء والنقاد على هذه الممارسات التي لطالما بقيت مستترة خلف أقنعة الفكر والأيديولوجيا يقول:"" أحدث انقلاباً في قلب المفاهيم الألسُنية والبنيوية. وينصبّ هذا التثوير للمعرفة حتى الآن على رجّ الثقافة الغربية وكشف آلية السّلطة والقوّة والسيطرة على "الخارج[1]"

يرى الدكتور محمد عناني في مقدمته أن الكتاب يمثل تجسيدًا مكثفًا للفكر التجريدي لإدوارد سعيد. ويعد هذا العمل محاولة من سعيد لتوضيح بعض المسائل المتعلقة بالمنهجية، مستفيدًا من تجربة فكرية عميقة منطلقا من " النظرية الحديثة وناقضا لبعض جوانبها التي تتسم بالتطرف أو الغلو، فهو يصوغ نظرية كاملة تقوم على التكامل والدينامية، وتتضمن تطوير "التعارض الثنائي" الذي لا يقتصر على مفهوم التعارض بين الذات والآخر، أو حتى الذات والموضوع، وهو ما يقوله الناقد الإنجليزي كولريدج إن الأديب يلغيه في لحظة الإبداع، بمعنى صهر الطرفين معا في العمل الأدبي، بل يتعداه إلى التعارض بين كل منشئ أو مبدع وبين ما سبقه، وهو ما لا بد منه، حتى يستطيع المبدع أن يبدأ: إنه يشعر بانتمائه إلى الإنسان، وإلى ما أبدعه الإنسان من آداب وفنون وما اختطه من دروب وشعاب فكرية[2]"

وقد ارتكز إدوارد سعيد في دراسته لبنية الاستشراق وتفكيكها على أسس على حسب ما وضحته الناقدة هويدا صالح تمثلت في :

-أولا :ركز على الاتساق والتماسك الداخلي للاستشراق وأفكاره عن الشرق، أو كما يقول : "ديزرائيللي الشرق كحقل معين من النشاط، الشرق كحرفة أو مهنة، بغض النظر، أو بعيدا عن أية توافقات مع الشرق الواقعي أو الفعلي[3]" قد يكون هذا الاتساق والتماسك الداخلي دليلاً على وجود بنية مسبقة ومهيمنة لدى المستشرقين في طريقة تناولهم للشرق ووصفه وتشكيله،

---

[1] إدوارد سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني، دار رؤية للنشر والتوزيع، القاهرة، 2015، ص4 .

[2] المرجع السابق، ص 6

[3] المرجع نفسه، ص 12

بغض النظر عن التغيرات الفعلية والتاريخية التي يشهدها الشرق. وفي هذا السياق، فإن المستشرقين" يتناولون الشرق كبنية جوهرية غير قابلة للتبدل والتغيير، إلا بما يضفيه ويحدده ويسمح به هؤلاء المستشرقون"[4]، لا يسعى سعيد، من خلال دراسته، إلى الكشف عن التناقض بين ما يطرحه المستشرقون وبين واقع المجتمعات الشرقية التي يتناولونها، بل ينصب اهتمامه على تحليل خطاب الاستشراق نفسه، كمجموعة مغلقة تعتمد على ذاتها وتتغذى على عناصر القوة الإمبريالية التي تمنحها الاستمرارية والديمومة .تتجلى أهمية هذا الكتاب في تقديمه دراسة شاملة للبُنى الثقافية للشرق من منظور غربي .كما تُستخدم كلمة "الاستشراق "للإشارة أيضاً إلى تقليد أو تصوير جانب من الحضارات الشرقية من قِبَل الرواة والفنانين في الغرب، وهو معنى أقل شيوعاً ونادراً ما يُعتمد عليه. أما الاستخدام الأوسع لهذا المصطلح فيرتبط بدراسة الشرق خلال الحقبة الاستعمارية التي امتدت بين القرنين الثامن عشر والتاسع عشر.

ثانيا: العلاقة بين الشرق والغرب ينبغي تحليلها بوصفها علاقة مشبعة بالقوة والهيمنة، حيث تم تشكيل صورة الشرق وإعادة تعريفه من قبل الغرب. يوضح إدوارد سعيد أن الغرب هو الذي قام بتحديد الخطوط الفاصلة والتمييز بين بنيتين ثقافيتين عُرّفتا كشرق وغرب. في بداية كتابه، يستشهد سعيد بعبارة معبّرة لكارل ماركس، الذي يشير إلى الشرقيين ضمن هذا السياق"إنهم لا يستطيعون أن يمثلوا أنفسهم؛ إنهم يجب أن يُمثّلوا"[5]

ثالثا: استند إدوارد سعيد إلى أفكار المفكر الإيطالي أنطونيو غرامشي الواردة في كتابه المعروف "دفاتر السجن"، والتي تناولت قضية هيمنة ثقافة على أخرى .انطلاقًا من هذا المفهوم، طوّر سعيد رؤيته حول تفوق الثقافة الأوروبية على باقي الثقافات غير الأوروبية، وهو ما يمتد أيضًا إلى الشعور بتفوق الأوروبيين على شعوب العالم الأخرى .

---

[4] المرجع نفسه، ص13.

[5] إدوارد سعيد، **الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق**، ترجمة محمد عناني ،ص14.

وفي هذا الإطار، يشير سعيد إلى نشأة بنية استشراقية تعتمد على الهيمنة الغربية منذ أواخر القرن الثامن عشر وحتى يومنا الحالي.

"ولعل أهم ما قام به إدوارد سعيد أنه قدم قراءة ثقافية للتاريخ الإنساني، قراءة منبنية على وعي منهجي وعلمي للأحداث التاريخية، أسبابها ونتائجها، مما يسهم في تثوير المعرفة الإنسانية، ويكشف الآليات الذهنية المنتجة للثقافة الغربية التي لا تؤمن إلا بالهيمنة والسيطرة على الآخر؛ أجل استغلال مقدراته، فالاقتصاد طوال التاريخ كان المحرك الأول والأهم لمعظم الأحداث التاريخية الكبرى التي ربطت الغرب بالشرق، منذ الحروب الصليبية وحتى واقعنا الراهن"[6]

[6] هويدا صالح ، **قراءة في كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد خطاب الاستشراق وجدلية العلاقة بين الشرق والغرب**، الموقع الالكتروني مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث، https://www.mominoun.com/articles/.